

السيرة النبوية واليهود

ذكرنا في الفصل السابق أن ابن اسحق في كتابته لسيرة الرسول ﷺ لم يعتمد على مصادر تاريخية معتمدة، وإنما جمع مواد كثيرة ومتنوعة وقبل العديد من الروايات والقصص التي لا تدعمها الأسانيد كما اهتم باستخدام الشعر لتكملة مصادره، وجاء ابن هشام بعده وحذف وأضاف الكثير، وهذا الأمر جعل أغلب المؤلفين والباحثين في التاريخ الإسلامي الأول، وخاصة المستشرقين منهم، يعتقدون بأنه من غير المعقول اعتماد السيرة النبوية كمصدر تاريخي يركن إليه.

والسؤال الذي يواجه القارئ للسيرة النبوية هو: لماذا هذا الموقف السلبي الذي يصل في بعض المواقف إلى حد التحريض ضد اليهود؟ وإلى أي مدى كانت مصداقية هذه القصص التي دارت حولهم؟

وهذا التساؤل يعيدنا إلى ذكر أمر مهم وهو أن بداية تدوين سيرة الرسول كانت بعد مضي ما يزيد عن سبعين عاماً على وفاة الرسول وذلك على يد "عروة بن الزبير" في زمن حكم عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هجرية). وأن ابن اسحق دون كتابه بعد مضي ما يزيد على المائة وعشرين عاماً على وفاة الرسول أيام خلافة أبي جعفر المنصور العباسي، ومثله أعاد ابن هشام تصنيف وكتابة سيرة ابن اسحق بعد مضي مائتي سنة على وفاة الرسول.

وهذا يقودنا إلى تأكيد ما ذكره المستشرق ليفي دلا فيدا، وهو أن احتكاك المسلمين باليهودية والمسيحية ورغبتهم في أن يضعوا منشيء الإسلام في كفة منشيء هذين الدينين قد شجعهم على وضع تلك القصص التي أحاطوا بها شخص النبي والتي أحدثت هذا التحول الشامل في طبيعة شخصيته من مولده إلى وفاته وبدلتها تبديلاً. فقد أصبح يمثل الصورة الظاهرة لكمال الخلق الالهي وغدت حياته أشبه بنسخة من حياة موسى وعيسى وأسبغ على أدق تفاصيلها طابع الوحي والخوارق(١).

كل هذا يقودنا إلى تلمس الجواب عن السؤال المطروح حول هذا الموقف العدائي البارز في سيرة ابن هشام من اليهود. فمن المعروف أن أتباع الديانة اليهودية كانوا الفئة الوحيدة التي رفضت التنازل عن دينها بل زادت التمسك به في سنوات المد الإسلامي الكاسح لكل أجزاء وقبائل الجزيرة العربية، وقد حافظ اليهود على وحدتهم ودينهم رغم مجاورتهم للمسلمين في يثرب، ورغم التسهيلات الكبيرة التي قدمها الرسول لهم وورد في (عهد الأمة)(٢) بعبء وصول الرسول إلى المدينة.

والذي يتفق عليه المؤرخون أن اليهود أخرجوا من يثرب أيام الرسول، ومن بقي منهم طرد أيام عمر بن الخطاب(٣)، وأن عملية إخراجهم وطردهم تمت بقسوة وتميزت بالعنف حيث عوقبوا اقتصادياً وجسمانياً ودينياً لنقضهم العهد والمواثيق ودعمهم لأعداء

الدعوة سرّاً وعلانيّة .

فقد وجد الرسول في تمسك اليهود بدينهم وعدم الإنضمام إلى الإسلام تحدياً كبيراً له ولدعوته ، وخطراً كبيراً على مستقبل الدعوة الجديدة خاصة أنّهم أصحاب الكتاب السماوي الأول ، وحكماؤهم معترف بعلمهم وتقواهم من قبل معظم العرب .

أمام هذا الموقف الصعب وجد مدونو السيرة أنفسهم ، التبرير لقسوة الرسول على اليهود إلى حد الطرد والقتل .

هنا كان لتجميع الروايات المختلفة وللقصص المتباعدة ، وللأحاديث المنسوبة وللقطوعات الشعر العديدة أهميتها في تبرير ما فعله الرسول وبعده عمر بن الخطاب مع اليهود ، فقد أظهرت هذه جميعها أن اليهود كانوا المسبب لما أصابهم ، ولا تبعة على الرسول وغيره .

جاءت هذه الروايات والقصص والأشعار لتؤكد أن رفض اليهود للإسلام ليس دافعه التمسك بدين آبائهم وإيمانهم به ، وإنما لتدل على ما يتصف به اليهود من صفات سلبية ، صفات تبرر للغير معاقبتهم وظلمهم .

وقد شكلت هذه الاتهامات المختلفة أساساً قوياً فيما بعد للجدل الديني ما بين المسلمين واليهود خاصة في العصور الوسطى ، إذ أن كثيراً من هذه الاتهامات التي ذكرت في السيرة وجهت ضد اليهود فيما بعد .

الإشارات

- ١ - Encyclopedia of Islam- Sira- p. 440
- ٢- ابن هشام - السيرة النبوية - الجزء الثاني - ص ١٤٧ - ١٥٠ .
- ٣- البلاذري - فتوح البلدان - ص ٤١ والسيرة النبوية لابن هشام -
الجزء الثالث - ص ٣٧١ .